مع غزّة

حسام الدين درويش

كيف نحتفظ بعقلنا وبضميرنا وكيف نؤثر

تقف هذه الزاوية مع مبدعٍ عربيّ في أيام العدوان على غزّة، وكيف أثّر على إنتاجه وحياته اليومية، وبعض ما يودّ مشاركته مع القرّاء. «العمل الفكري الإبداعي سياسيٌّ، بقدر ما يتناول قضايا عالمه، ويتخذ منها موقفاً» يقول الباحث السوري لـ «العربي الجديد»

بطاقة

كاتب وباحث وأكاديمي سوري من مواليد حلب عام 1971. صدر له ثمانية كتب، منها: «إشكالية المنهج في هيرمينوطيقا بول ريكور وعلاقتها بالعلوم الإنسانية والاجتماعية: نحو تأسيس هيرمينوطيقا للحوار» (2016)، و«نصوص نقدية في الفكر السياسي العربي والثورة السورية واللجوء» (2017)، و«في المفاهيم المعيارية الكثيفة: العلمانية، الاسلام (السياسي)، تجديد الخطاب الديني» (2022)، «في فلسفة الاعتراف وسياسات الهوية» (2023).

حسام الدين درويش

كوبنهاغن (الدانمارك) ـ **العربي الجديد**

■ ما الهاجس الذي يشغلك هذه الأيام، في ظل ما يجري من عدوانٍ إبادةٍ على غزّة؟

بوصفي كاتباً، إنّ الهاجس الأساسي الذي يشغلني في هذه الأيام هو كيف يمكننا أن نحتفظ بعقلنا وبضميرنا ونستخدمه ونوظّفه لفهم ما يجري في الواقع، وللتأثير الإيجابي فيه، لمصلحة المستضعفين عموماً، وفي غزّة وفلسطين خصوصاً. فمنذ السابع من تشرين الأول/ أكتوبر، وفقدان العقل والضمير هو السمة السائدة أو المُهيمنة في هذا العالم. وظهر ذلك لدى الكثير من الأطراف، الدولية والمحلية، المؤسساتية والفردية، الغربية والعربية، النخبوية والشعبية ... إلخ. وتجلّى فقدان العقل المذكور في صيغتين أساسيّتين: الأولى تمثّلت في الممارسات الوحشية الإبادية ضد المدنيّين، من جهة، وتأييد هذه الممارسات، أو السكوت عنها، بصفاقةٍ قلّ نظيرها، من جهةٍ أخرى. أمّا الثانية فتجلّت في ردود الفعل المتطرّفة (السلبية)، أو في الشعور بعدم التصديق والعجز عن الفهم: كيف يمكن أن يحدث ما يحدث؟ كيف يمكن لمثل هذه الجرائم الكثيرة والكبيرة أن تحدث بهذه الطريقة الوحشية الفاضحة؟ وكيف امتلكت بعض الأطراف القدرة الوقحة على إعلان تأييدها، المباشر أو غير المباشر، لمثل هذه الجرائم، وللأطراف التي تقترفها؟

■ كيف أثّر العدوان على حياتك اليومية والإبداعية؟

أصبحت القضية الفلسطينية، والصراع العربي الفلسطيني الإسرائيلي أكثر حضوراً في حياتي اليومية، الخاصّة والعامّة، وفي العلاقات واللقاءات الاجتماعية والمهنية، على حدٍّ سواء. وبوصفي أعيش في ألمانيا – صاحبة الموقف الرسمي الأسوأ تقريباً في هذا الخصوص – وأعمل في مؤسساتها الأكاديمية، وأحمل جنسيّتها، ولديّ الكثير من العلاقات والصداقات فيها، فقد أجريت حواراتٍ عديدةً، شفاهيةً وكتابيةً مع عددٍ من الأشخاص في ألمانيا، ونُشرت بعض هذه الحوارات باللغتين الألمانية والعربية. وبوصفي كاتباً، تمحورت معظم نصوصي المنشورة، في هذه الفترة، حول القضية الفلسطينية والصراع مع الاحتلال الإسرائيلي. وستُنشر تلك النصوص في كتابٍ قريباً.

■ إلى أي درجة تشعر أنّ العمل الإبداعي ممكنٌ وفعّالٌ في مواجهة حرب الإبادة التي يقوم بها النظام الصهيوني في فلسطين اليوم؟

في مثل هذه الظروف العصيبة والصعبة، تزداد محفّزات الكتابة والإنتاج الفكري والإبداعي عموماً، وتزداد صعوبة ذلك، في الوقت نفسه. وبين ذلك التحفيز، وتلك الصعوبة، ينوس العمل الإبداعي فيزداد حجم نتاجه حيناً، وينكفئ حضوره حيناً آخر. ويصعب الحديث عن إمكانية أن يكون العمل الإبداعي فعّالاً في مثل هذه السياقات. لكن، حتى إذا انعدم الجدوى من العمل الإبداعي الفكري، فإنّ ذلك العمل يمكن أن يسهم في إنتاج المعنى والحفاظ عليه، والمعنى هو أهمّ ما يبقى بعد حصول الحدث، ومُضي الماضي. ويمكن لإنتاج هذا المعنى، والحفاظ عليه، أن يسهما في الفاعلية التي يبدو، لوهلةٍ أو أكثر، أنّ العمل الإبداعي الفكري يفتقدها.

■ لو قيّض لك البدء، من جديد، هل ستختار المجال الإبداعي أو مجالاً آخر، كالعمل السياسي أو النضالي أو الإنساني؟

المجال الفكري الإبداعي أصبح جزءاً من هويّتي أو ماهيّتي، أو هو كذلك دائماً، وفقاً لانطباعي عن نفسي. وانطلاقاً من ذلك، أرى أنّ من غير المناسب لي أن أكون في غير المجال الذي أنا فيه، وليس مناسباً للمجالات المذكورة أن أكون فيها، لكن يمكن للعمل الفكري الإبداعي أن يحمل سمات الأعمال الأخرى – سمات العمل السياسي والنضالي والإنساني – أو أن يكون سنداً لها، من دون أن يختزل نفسه في أيٍّ منها. والعمل الفكري الإبداعي سياسيٌّ، بقدر ما يتناول قضايا عالمه، ويتخذ منها موقفاً مباشراً أو غير مباشر؛ وهو نضاليٌّ، بقدر ما يتبنى، صراحةً أو ضمناً، قيماً ومُثُلاً وغاياتٍ، ويسعى إلى تطبيقها وتحقيقها. وهو إنسانيٌّ بالمعنيين، السياسي والإنساني، المذكورين، وبمعانٍ أخرى كثيرةٍ أيضاً.

■ ما التغيير الذي تنتظره أو تريده في العالم؟

يبدو لي أنّ التغيير الذي أنتظره أو أتوقّعه غير ذاك الذي أريده. فما أريده لهذا العالم، ومنه، ظلماً أقلّ و/ أو عدالةً أكثر، في حين أن ما يحصل في هذا العالم يشير إلى أنّه يسير في اتجاه مناقض لذلك. وازدياد قدرة القوى المهيمنة على التحكّم والسيطرة يتسارع ويتعاظم بدرجةٍ أكبر من ازدياد قدرة المقاومة لها على الحدّ من ذلك التحكّم وتلك السيطرة. وأخشى أننا نتّجه إما إلى نظامٍ يزداد قسوةً وجوراً، أو إلى فوضى أكثر عبثيةً وسلبيةً. وعلى الرغم من كلّ ما سبق، وبسببه، أرى ضرورة السعي إلى جعل هذا العالم أفضل، أو أقل سوءاً، على الأقل.

■ شخصية إبداعية مقاومة من الماضي تودّ لقاءها، وماذا ستقول لها؟

عروة بن الورد هو إحدى تلك الشخصيات التي أودّ لو كان بالإمكان لقاؤها. فقد قاوم مظالم النظام الذي كان يعيش فيه، وخرج عنه وعليه، وحاول إصلاح الأضرار المترتبة عليه. وكان يسعى إلى تحقيق العدالة الاجتماعية بطريقته المبدعة الخاصة، فكان ينتصف للضعيف من القوي، وللمظلوم من الظالم، وللفقير من الغني ... إلخ. لم يكن تمرّده مجرد انفعال أو رد فعل منفعل أو نفور من واقع جائر قائم، بل كان سعياً فاعلاً إلى تطبيق مبادئ أخلاقية سامية، وتحقيق غايات إنسانية نبيلة. لقد قاوم عروة النظام القائم في زمانه بإبداع نموذج بديل أفضل منه. فلم يستمد شرعية أفعاله وأقواله من سوء النظام وسلبياته فحسب، بل استمدّها خصوصاً أيضاً من إيجابيات البديل الذي قدّمه وعمل على تحقيقه. ولو كان بالإمكان أن يسمعني، لقلت له: «شكراً يا عروة، شكراً يا بن الورد، وربّما يهمك ويسرّك أن تعلم أنّه ما زال هناك من يقدّرك ويقدّر صنيعك حتى الآن».

■ كلمة تقولها للناس في غزّة؟

ليس لدي الكثيرين غير الكلمات للتعبير عن مشاعرهم ومواقفهم تجاهكم. قد لا يهمكم (كثيراً) أن تعرفوا أنّ الكثير من البشر، وعلى الأرجح أغلبهم، من الشرق والغرب، ومن الشمال والجنوب، من العامّة والنخبة، ومن كل الأديان والإثنيات والأعراق والقارات، متضامنون معكم ورافضون للظلم الوحشي الواقع عليكم، لكنّ كثيرين ممن أعرفهم (من «الأجانب»)، يهمّهم أن تعلموا بأمر هذا التضامن وذلك الرفض. وبوصفي سورياً، أود أن أخبركم أنّ الظلم ليس له جنسية، وأنّ السوريين، ومنهم الفلسطينيون السوريون، قد عانوا هجمية أسدية مماثلة للهمجية الإسرائيلية التي تتعرّضون لها أنتم حالياً، وربّما كانت أشد مضاضة. ولهذا، فمعظمنا، يُدرك، ربما أكثر من غيرنا، مدى معاناتكم وفداحة الظلم الواقع عليكم، وضرورة الوقوف ضدّ الظالم مع المظلوم، بغض النظر عن كلّ الانتماءات والحسابات الضيقة.

■ كلمة تقولها للإنسان العربي في كلّ مكان؟

الإنسان العربي، هو، أولاً وقبل كلّ شيء، إنسانٌ، بالمعنى المعياري للكلمة، وينبغي ويؤمل أن يبقى كذلك، بعد ذلك الكل، أيضاً. وبقاء الإنسان العربي إنساناً، يعني أن يُعامل على أنّه كذلك، سواءٌ من «إسرائيل» – التي وصفت الفلسطينيّين بـ«الحيوانات البشرية»، وعاملتهم، بالفعل، على أنهم كذلك – أو داعميها من الحكومات الغربية، أو من السلطات (العربية) المستبدة التي تحكم هذا الإنسان في فلسطين، أو في غيرها من مناطق العالم العربي. فالإنسان العربي مضطرٌ إلى بذل جهود أكبر من جهود كثيرين غيره للحفاظ على إنسانيته. ففي المواجهة الجهيمية مع الوحوش، تكون المهمة الأولى والأصعب للإنسان هي عدم التحوّل إلى وحشٍ، بدعوى ضرورة ذلك ومشروعيّته، في مواجهة الوحوش.

■ حين سُئلت الطفلة الجريحة دارين البيّاع التي فقدت معظم أفراد عائلتها في العدوان، ماذا تريدين من العالم، أجابت «رسالتي للناس إذا بيحبوا دارين يكتبوا لي رسالة أو أي إشي».. ماذا تقول لدارين ولأطفال فلسطين؟

كلّ الناس يحبّون دارين، يا صغيرتي، لكنّهم ربما لا يجدون الكلمات المناسبة للتعبير عن ذلك الحب. لا يليق بك مجرد «أي إشي»، بل يليق بك «كل إشي» حلو وجميل. أتخيّل، الآن، أنّك قد تقرئين هذه الكلمات، وأتخيّل وأتأمّل أنّك قد تشعرين بأن لها معنى وقيمة وأثراً ما. ويمكن لمجرد ذلك التخيّل والتأمّل أن يجعل لكلماتي معنى وقيمةً وأثراً طيباً في نفسي. في عالم يفتقر إلى المعنى والقيمة أكثر فأكثر، يمكن لك يا صغيرتي أن تكوني خالقة المعنى، أو أن تكوني أنت نفسك المعنى ذاته. وفي هذا مسؤوليةٌ كبيرةٌ، بلا شك. لكن هذا هو، للأسف، قدر كل الشخصيات الملحمية والأسطورية.

قصيدة

بينما يمرّ شهود بيترلو في ذاكرتنا

مع شيلي وأبي القاسم الشابي في غزّة

علي الجمري

محنة الإنسانية

«إن الكابوس الذي تعاني منه غزة
أكثر من مجرد أزمة إنسانية. إنه محنة الإنسانية».
أنطونيو غوتيريس، الأمين العام للأمم المتحدة

لو طلبتُ منك تخيُّل رقم
ستفقدُ الحسبة قبل أن تُبدأ -
كيف يمكنك أن تحتمل حجم الجريمة
وأجنحة الخيال تهوي من السماء؟
صعب أن تتخيل هذا الطفل الجميل
وأخته الرضيعة وعمّته وعمّه
وبنات عمته والجيران وأولاد الحي
وفريق كرة قدم الحيّ
منافسيهم ومشجعيهم
والأساتذة والأطباء
والأمهات والآباء
والأحلام والأحلام -
الاسم مكتوبٌ على ظاهر اليد كالوشم
يصرخ «ملكيةُ إنسان جميل»
ولا يدلّ على أحلام هذا الإنسان الجميل.
صعب على خيالك البسيط
أن يرسم جزءاً من لوحة هذه الجريمة.

في أمان مدينة مانشستر
نفرح
بخرافة خلق المدينة
ملعبنا هو مذبحة بيترلو،
حين احتشد الشعب خلف هتافات
«الحرية أو الموت»
فتبدّلت ملابس الشعار من الرمزية إلى الجنائزية.
من السهل علينا تخيّل الستة عشر قتيلاً في قرن بعيد
لكن من يعرف أسماء شهداء بيترلو اليوم
سوى المؤرّخين وراء أبواب الأرشيف المغلقة؟
وبينما يمرّ شهود بيترلو الستة عشر في ذاكرتنا
نحاول أن نحفظ أسماء الشهداء السبعمائة.
لكن السبعمائة هم شهود يوم واحد
وقائمة أسمائهم لا تصلُ عُشر من فقدناهم
أسير على طريق بيترلو مع الشعب
ونطالب من «النظام» بأبسط شيء:
وقف إطلاق النار!
وقف إطلاق النار!
وقف إطلاق النار!

أعفُّ خطواتي وبعد كل سبعمائة خطوة
أقف لأقرأ عليهم الفاتحة.
لا تنسى إنسانيتك يا غزّة.
في لحظتي مع الفقدان يدق الشاعر شيلي باب القلب
قارئاً أسطورة المدينة التي خَلَدها:
هُبُوا كاسادٍ بعد الرُّقاد
في جموع لا تُقهر
انفضوا الأغلال كما تنفضون ندى
تساقط عليكم في نومكم
أنتم الأكثرون. وهم قِلّة!
افتح الباب لـ شيلي ويدخل وراءه أبو القاسم الشابي، ويُنشد:
«اعلنْ في الكونِ أنّ الطموحَ لهيبُ الحياة وروحُ الظَّفَر
إذا طمحت للحياة النفوسُ فلا بدَّ أن يستجيب القدر!».

ثم يستدعي الشابي سميح القاسم إلى ديوان القلب
ليذكرني بحكمته:
«من كوةِ زنزانتي الصغرى
أبصر زنزانتك الكبرى».
أما أنا، فاتشبث بخلاصة كلماتهم
السامقة التي رحل عنها كل أصدقائي:
سأشعل ذلك الشرر فيّ
كصلاةٍ
أو شمعةٍ تُضيءُ ذكرى شهدائنا.

(شاعر بحريني بريطاني من مدينة مانشستر، والقصيدة كتبت أصلاً بالإنكليزية والنص هنا من ترجمة الشاعر).

علي الجمري

فتيان وكبار يرفعون لوافيت رمزية وصور شهداء تضامنا مع فلسطين، مانشستر، نيسان/ ابريل 2018 (Getty)

إطلالة

في ضرورة أن تصمد الروح

دول هادئة أمام المجزرة

إنّه لتحدّ كبير للعقل البشري أن يكون شاهداً على واقع كهذا، ويُطلب منه أن يستكين للصمت وتجاهل المجزرة

عاطف الشاعر

لا أعتقد أنّ هناك في التاريخ الحديث على الإقلّ حالة تشبه حالة أهل غزّة، حيث تُفرَض على الناس أصناف مختلفة من الموت والعذاب وسوء المعاملة، ويستمرّ الأمر ويستفحل وتنعدم الآفاق بانفراجة توقف المقتلة والدمار. ويزداد الأمر سوءاً مع المعرفة بأنّ القتلة المجرمين الصهاينة يتمتّعون بكل الامتيازات غرباً وشرقاً، وأنهم لا يواجهون أيّ عقاب أو رادع، بل يُلاحَق الشرفاء في كلّ مكانٍ لقول أبسط الأشياء عمّا يحدث في غزّة. الباطل بكلّ أشكاله مرفوع، والحقّ بكلّ أشكاله مكسور في هذه الحالة. إنّه لتحدٍّ كبير للعقل البشري أن يكون شاهداً على واقع كهذا، ويُطلب منه أن يستكين للصمت وتجاهل المجزرة.

إنّ ما يحدث في غزّة يضعنا أمام السؤال عن الفكرة الشائعة بأنّ حياة الإنسان مقدّسة، وقدسيّتها تتفوّق على كلّ شيء. والحديث عن القوانين الدولية أو النظام العالمي بوصفه راعياً لنظام وقداسة حياة الإنسان وحقوق الإنسان عامّةً يشبه العبث، والرغوة اللغوية التي لا تساوي الهواء التي تبثّ فيه. القانون والنظام الدولي والمؤسّسات الدولية كأطر حلّ واسترجاع حقوق كلّها تهاوت أمام مأساة غزّة.

واستدرك بالقول إنّ هذه القتامة ليست محض خيال، فضحاياها كثرٌ والنزيف منها ما زال في الذروة. واستدرك بالقول أيضاً ما زال الحديث يأخذ منحى فلسفياً: إنّه من الواضح أنّ هناك اغلبية في العالم ضد الإبادة في غزّة، وهي تشعر مع غزّة وأهلها، لكن النفوذ والعصابات التي تحكم العالم عبر أدوات متعدّدة من الإعلام إلى احتكار «مجلس الأمن»، وسُلّ أيّ إمكانية لديه على اتخاذ قرارات فعّالة إلى الجامعات وغيرها من واجهات التأثير، تعطّل أيّ تضامن فعّال وتغيير حقيقي، وهكذا تبقى الصورة تتشكّل من الموت والدمار والنفاق الغربي الرسمي وغيره منقطع النظير. هل ما يحدث في غزّة مقدّمة لتهجين وتطبيع العنف عالمياً بحيث يصبح اعتيادياً وينشغل الناس باحتياجات الحياة الغريزية، فلا يرتفع لهم صوت ولا تقوم لهم قائمة؟ هناك حروبٌ طاحنة الآن تدور رحاها، خصوصاً في العالم العربي، هذا العالم المكوّن من خريطة تشرذم ونفاق وضياع، مع جيوب على شكل دول هادئة وممعنة في هدوئها أمام المجزرة والدمار.

كيف سيكون شكل الحرب العالمية الثالثة إذا ما قامت، لو سمح الله؟

إنّ تطبيع العنف وجعل صورته المرعبة شيئاً شائعاً ومألوفاً، وإطلاق العنان لأمثال القتلة الإسرائيليّين مثل سموتريتش وبن غفير وغالانت ونتنياهو وغيرهم لقيادة المجزرة؛ التي لا تهزّ شعرة في «البيت الأبيض» الذي يكذب بوتيرة منتظمة وبلا أي وازع أخلاقي، هو تقنين للعنف وشريعة أسوأ الحيوانات في الغابة. هو تحدٍّ كبير لإنسانيتنا المهلهلة التي لن يرقعها الزمن ولن تندمل جراحها، لأنّ هناك أرواحاً بشرية نشاهدها الآن مثلنا تصارع على حافة الحياة المسلوبة محتوى ومعنى في غزّة. إنّ ما نحياه اليوم لا يبشّر بخير. لا يُطمئن. إنّه يضعنا ولغتنا أمام استحقاقات نفسيّة وفكرية أبعد من أن تفهمها كليّاتنا العقلية والحسيّة. والخلاص الفردي هنا هو نوع من الترف والخواء والموت لمعنى أن يكون الإنسان إنساناً، فالنعامة مهما دسّت رأسها في الرمل، لا بدّ أن ترفعه حتى لا تصطدم بما قد يقضي عليها ويُحيلها أشلاء على الأرض، وأثراً تذروه الرياح.

ولكي لا أتقوقع في القتامة، على جاذبيّتها في الواقع المأزوم، لا بدّ من صمود الروح، لا بدّ من الإيمان أنّ الباطل الفجّ مهما تجبّر إلى زوال، لأنّ أغلب البشر والبشرية مع التوازن ومع الاعتدال ومع العدل ومع الحياة للجميع. كلّ سويّ حرّ شريف يرفض أيديولوجية قتل الصهيونية للأطفال والإمعان في تعذيب الأبرياء وحرمانهم من الحياة الذين هم أهلٌ لها وأهلها. يتطلّب هذا الوعي دقّاً على كلّ جدران الظلم، ونشاطاً حيثما أمكن في دهاليز العالم من أجل النجاة، والسلامة والكرامة للجميع.

(كاتب وأكاديمي فلسطيني مقيم في لندن)

الإبادة في غزّة مقدّمة لتطبيع العنف عالمياً وجعله اعتيادياً

طفلة نازحة تحطو فوق حطام مسجد الفاروق الذي دمّره العدوان، رفح، 22 آذار/ مارس 2024 (Getty)

فعاليات

عند التاسعة من مساء الخميس المُقبل، تنظّم مجموعة «إطار فنّي» في عمّان، عبر منصة «زووم»، جلسة بعنوان **قعدة فنّ 10: فتحي غبن، الفنّان الغزّي والمعلّم**، يُشارك فيها الفنانون: **محمد جحا** و**حازم حرب** و**ماهر ناجي**، ويتطرّقون الى ابرز المحطّات في سيرة الفنان الفلسطيني الذي استشهد في غزّة الشهر الماضي.

الكتابة مع اطياف المحو عنوان الحوار الذي يجمع الروائية الفلسطينية **عدنية شبلي** (الصورة) بالكاتبة اللبنانية **زينة الحلبي**، عند السابعة من مساء الخميس المُقبل في «دار النمر» ببيروت، وتنظّمه «مجلّة بيروت الادبية والفنّية: فمّ»، حيث تتناول صاحبة «تفصيل ثانوي» ملامح من تجربتها الادبية، وعلاقتها بتخيُّل الماضي والواقع الاستعماري القائم في فلسطين.

يُعيد «مسرح فابريكا» تقديم العرض الغنائي **في الليلة الكبيرة** للرّاحلَين: الشاعر **صلاح جاهين** والموسيقي **سيّد مكاوي**، عند التاسعة من مساء الاول من نيسان/ ابريل المُقبل، في «ساحة روابط للفنون» بالقاهرة. عُرض الاوبريت للمرّة الاولى عام 1961، ويُعدّ من اشهر ما قُدّم في مسرح العرائس بمصر.

حتى نهاية آذار/ مارس الجاري تتواصل فعاليات الدورة الثانية عشرة من تظاهرة **عرائس رمضان** في «مدينة الثقافة: الشاذلي القليبي» بتونس العاصمة. على برمجة العروض للايام المُقبلة: **رحلة سنجوب** لـ **ايمن النخيلي**، و **طبيب الضيعة** لـ **اسعد المحواشي**، إلى جانب عدد من ورشات تحريك وصناعة العرائس.